وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

الهدايات السننية لصناعة الإنسان الصالح

اسم الباحث/ـة

أ.د/ رشيد كُهوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام البررة أجمعين. ... أما بعد:

فلا يخفى عن كل حصيف متأمل أن القرآن الكريم أولى الإنسان عناية بالغة، فهو كلّه إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان، وقد تكررت كلمة (الإنسان) في القرآن الكريم أزيد من ثلاث وستين مرة، بصيغها المختلفة جمعاً وإفراداً، وقد تضمن القرآن الكريم دستورًا جامعاً لبناء الإنسان وتنظيم حياته في مختلف أبعادها النفسية والاجتماعية والحضارية.. وقد حمَّله الله تعالى أمانةَ عمارةِ الأرض وبناء العمران والنهوضِ بمسؤولية الاستخلاف..؛لأجل ذلك ركزت الهدايات السننية القرآنية على بناء "الإنسان الكوثر" الذي يكثر نفعه وخيره وعطاؤه، وتتشكل روحه وقلبه؛ وذلك بتزكيته وإصلاح قلبه وتقويم سلوكه الكلي، وبناء عقله الجماعي، وإحياء وعيه برسالته الإنسانية على نور هدايات الوحي السماوي، حتى يستكمل إنسانيته ويخرج من ضيق دائرة الإنسان الأبتر الإنسان الآلة إلى رحاب الإنسان الكوثر الإنسان الآية...

وصدق الله جل ذكره إذ يقول:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المائدة ١٦].

ومن هذا المنطلق جاءت الهدايات السننية من عالم الغيب لتربط الإنسان بأصله الحقيقي، وتشعره بسعة الكون، وربوبية الخالق عز وجل، المحيطة بكل شيء، ثم تعلمه بقصته كاملة من النشأة حتى المصير، وما له في ذلك كله وما عليه، لتعيد بناءه وصياغته عقلياً وروحياً وسلوكياً وفق منهاج الإسلام وهدى القرآن، بناء يُعلي قيمتَه، ويحفظ علانيتَه وسريرَته، ويبعثه على الشهود العمراني بما هو شُهودٌ روحيٌّ وماديٌّ؛ فيؤدي رسالته في هذا الوجود كما أمر الله تعالى

عبادة وعمارة للأرض ونهوضا بأمانة الاستخلاف فيها، وشهادة على الناس بالقسط... ؛ذلك بأن بناء الإنسان أساس بناء المجتمعات وأصل كل عمران؛ فالذي يسعى لبناء المجتمع الصالح وإقامة العمران الإسلامي الفاضل والنهوضِ به لابد له أن ينطلق من قاعدة: (**إصلاح الخارج ينطلق من إصلاح الداخل**) أي؛ إصلاح المجتمع وإقامة العمران ينطلق من صناعة الإنسان، بناءً على القاعدة القرآنية الخالدة: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

وتأسيساً على ما تقدم فإنني أهدف من خلال هذه المشاركة إلى إبراز أهم الهدايات القرآنية السننية المتعلقة ببناء الإنسان الصالح، من أجل أن نستفيد منها في وقتنا الراهن في إصلاح الإنسان المعاصر، بدءاً من الأسرة، ومروراً بالمدرسة والجامعة والمجتمع.. إن مثل هذه الدراسات التي تبرز هذه الجوانب الهدائية السننية في القرآن الكريم قليلة جداً، ومن ثم فإن هذه الدراسة مساهمة في خدمة مشروع الهدايات القرآنية، ولبنة مضافة إلى المكتبة الإسلامية.

وسأسلك في هذه الدراسة مسلك المنهج الاستقرائي التحليلي الاستنباطي، وذلك باستقراء الآيات السننية المتعلقة بإصلاح الإنسان وتحليلها واستنطاقها من أجل استنباط مقومات صناعة الإنسان الصالح المؤهل للخلافة في الأرض، مستعيناً على ذلك ببعض كتب التفسير المبينة للغرض.

وستتكون هذه المشاركة بعد هذه المقدمة في مدخل عام ثم عناوين فرعية، أخصص كل عنوان لهداية واحدة وما يتفرع عنها من هدايات جزئية.

والله تعالى أسأل التوفيق والسداد والرشاد.

مدخل عام: الهدايات السننية مفهوماً وتأصيلاً وأهمية:

ورد مصطلح السنة بصيغه الصريحة المختلفة في عشر سور قرآنية، بالتساوي بين المكي منها والمدني؛ أي خمسَ مرات في كل قسم، حيث ورد مرة واحدة في ثلاث سور، ومرتين في سورة واحدة، وثلاثَ مرات في سورة، مما يعكس بوضوح أهميةَ الهدايات السننية في الرسالة الإسلامية الخاتمة، والأبعادَ العقدية والتربوية والاجتماعية والعمرانية الحضارية والرسالية والاستخلافية للسننية في سائر المراحل التي تمر بها الأمة.وقد وردت السنة في القرآن المكي في سياق تاريخي واجتماعي عن تجارب الأمم الغابرة وموقفها من الرسالة والنبوة ونتائج ذلك سلباً وإيجاباً، وثواباً وعقاباً.

أما السنةُ في القرآن المدني فقد جاءت في سياق اجتماعي وسياسي وحضاري، يتعلق ببناء الدولة والأمة والمجتمع المسلم والعمران الحضاري الإنساني.

وقد تحدث القرآن عن السنن طويلاً بصيغ مختلفة منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: ٢٣).
- ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٧).
- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (الكهف: ٥٥).
- ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧).
- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦).

ومن ثم فالسنن الإلهية هي: هي المنظومة السننية الحاكمة لصيرورة العمران البشري، الناظمةُ لحركة الحياة والأحياء والاستخلاف الإنساني والوجود الكوني وسير المجتمعات عامة، ولسلوك الإنسان وحركته في المجتمع، وصيرورته في عالم الشهادة الدنيوي، وفاعليته في التاريخ خاصة.. التي تهدف إلى إصلاح

الإنسان –نفسا ومجتمعا وأمة– في المعاش وإسعاده في المعاد، وتحقيق شهودِه العمراني على الأمم.

أما الهدايات القرآنية السننية فأقصد بها في هذه الورقة: الدلالات المبَيّنة لما تضمنه القرآن الكريم من سنن إلهية التي رسمها الله تعالى لهداية الإنسان وإصلاحه في المعاش وتحقيق سعادته في المعاد على مقتضى حكمته تعالى وعدله ومشيئته المطلقة.

وعليه، فإذا كانت الهدايات السننية توجه الإنسان لتنظيم شؤون حياته وفق مراد الله وعلى منهاجه المستقيم؛ فإن أهميتها بالغة في مسيرة الإنسان السلوكية والاجتماعية والعمرانية؛ ذلك بأنها تضيء للإنسان–فرداً ومجتمعاً وأمة– طريقه في إصلاح نفسه، والنهوض بمسؤولية عمارة الأرض بالخير، وتبصره بوظيفته في هذا الوجود. ومن ثم فإن "نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرَّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه"[(١)].؛ لأن تلك الهدايات القرآنية السننية تُلهم الناس طريق الصلاح في الأرض، ذلك بأن وظيفتها الأساس هي العمل على إصلاح الإنسان أولاً، ثم إصلاح المجتمع البشري بعد ذلك أدبياً ومادياً، والسعي لتطهيره من كل الشوائب والقبائح

(١) "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، محمد عبده، مجلة المنار، المجلد الخامس (١٦ جمادى الآخرة – ١٣٢٠هـ)، ص٤٤٣. أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، جوهري طنطاوي، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، ص١٨.

والآفات، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعايب، وبذلك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب والأزمات، ويصبح مجتمعاً صالحاً، جديراً بأن يوصف بكونه إنسانياً، لأنه ينهج نهجاً أخلاقياً قيمياً ربانياً.

ومن هذا المنطلق لابد من العناية بالهدايات السننية، والوعي بها، والعمل بمقتضاها، وفي هذا السياق يقول الشيخ أحمد المراغي رحمه الله: "إذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للإنسان كسباً اختيارياً كلفه الله العمل به وأنه يجازى على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما وضعه الله في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، وأن هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله الذي سخرها وجعلها أسباباً وعلّمه ذلك، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به، فالمؤمن يتوكل على الله وحده وإليه يتوجه فيما يطلبه منه.

أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله في الخلق فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي لا تتبدل ولا تتحول"(١).

وقد أنكر الإمام محمد عبده على المتقدمين والمتأخرين اشتغالهم بالجزئيات على حساب الهدايات السننية، وفي هذا يقول:

"ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها، وهو ما لا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة، والسلم والإجارة، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده، لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله،

(١) تفسير المراغي، ٩/١٦٥.

بل هو منه أو من طرقه ووسائله"[1]

ومجمل القول: إنَّ إعمال النظر الهدائي السنني في آي القرآن الكريم من أهم ما يجب أن نستحضره في الدرس التفسيري المعاصر، من أجل بيان السُنن الإلهية في الخلق والتكوين، وفي الإنسان والاجتماع والعمران البشري، وشؤون الأمم والحضارات..

الهداية السننية الأولى: الإيمان مدخل لبناء الإنسان:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، إن التغيير منطلقه من الداخل، وتغيير الداخل يكون بالإيمان، يقول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ذلك بأن العامل الأساس في بناء الإنسان هو الإيمان الذي يجعله يستعلي على متاع الدنيا وزينتها، لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى.. فمن آمن وأخلص في إيمانه وعمل صالحا وفقه الله للهداية وأحياه حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وهذه سنة الله تعالى الثابتة ووعده الله لنا في كثير من آيات القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾ [البقرة: ٤-٥]. ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: "إن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان والإيمان مقتض لها فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾؛ وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤١٦/٧.

من حيث لا يحتسب، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة"[١].

وهكذا يتضمن القرآن الكريم منظومةً سننية هدائية كلية لبناء الإنسان الصالح، ذلك بأن الهدى المنهاجي السنني القرآني في بناء الإنسان لا يقتصر على الأسباب المادية، وإنما يركز أساساً على البناء الداخلي للإنسان،

على ذلك البناءِ الذي يتأسس على الإيمان، وينطلق من ركيزة أساسية وهي أن إصلاح العالم من حول الإنسان إنما يبدأ من الإصلاح الذاتي، وهو المبدأ الذي حاول الإسلام أن يرسخه لدى المسلم وأن يجعله قاعدة صلبة ينطلق منها التحول إلى الأحسن.

ذلك بأن خلاص الإنسان من كل أمراضه وأزماته، إنما يكمن في الإيمان، والانقياد لله جل وعلا، والإخلاص في ذلك كله، والارتفاع عن الحرص على الحياة الدنيا والتكالب على أعراضها، واختيار ما عند الله، وهو خير وأبقى. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.فبالإيمان "يصبح الإنسان إنسانًا حقًّا، ويظهر أنه في (أحسن تقويم) فيصير ببركته لائقًا للأمانة الكبرى، وخليفة أمينا على الأرض، ودعامة رئيسة في صرح التغيير والبناء"[٢].

ومن ثم فإن "الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمةً تجعلُه لائقًا بالجنة، بينما يتردّى بظلمةِ الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضعٍ يؤهّلُه لنار جهنم، ذلك لأنّ الإيمان يربطُ الإنسان بصانعهِ الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبةٍ إليه، فالإيمان إنما هو انتسابٌ؛ لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهورِ آيات نقوشِ الأسماء الربانية على صفحةِ وجوده، أما الكفرُ فيقطع تلك النسبةَ وذلك

---

[١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص٤٤٨.

[٢] انظر: الكلمات، بديع الزمان النورسي، ص ٣٧٣.

الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فَتنقُّص قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادّته فحسب؛ وقيمةُ المادة لا يُعتدّ بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية، زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة"[1].

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بالتنزيل العملي لهذه الهداية القرآنية السننية في الواقع، حيث بدأ في بنائه للإنسان بالنفس البشرية، وصنع منها الرجال العظماء، ثم انطلق بهم ليصنع أعظم إصلاح اجتماعي في تاريخ البشرية كلها، حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع عمران بشري إسلامي عرفته البشرية.

إن ذلك الإيمان الذي يعتبر سنة إلهية في البناء والإصلاح والتغيير والنهضة وأساساً لصناعة الإنسان الصالح **يتحقق بأربعة مقومات، وهي:**

١-**عبادة الله تعالى**، والخضوع له، والانقياد لأمره، والسعي في رضاه، ذلك التعبد الذي يرفع الإنسانَ عن العبودية لسواه تعالى، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد.. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. إن الغاية من خلق الجن والإنس هي أن عبادة الله وحده لا شريك له، والعمل بشرائعه وأحكامه، والإيمان برسله وما جاؤوا به من كتب وما أخبروا به من الغيب. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٣٦].

فعَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ. قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ

[1] الكلمات، النورسي، ص٣٤٨.

شَيْئًا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» (١). قال سبحانه: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١١٠].

٢-**المحبة التي توجب المعية:** محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم غاية قصوى يتوخاها المسلم في أمره كله، ويسعى لنيلها صباح مساء؛ إذ هي حجر الزاوية التي يقيم المسلم عليها بنيانه الإيماني، وهي المعيار والمقياس التي يعرف من خلالها المؤمن مدى علاقته بالله ورسوله، قربًا وبعدًا، وإقبالا وإدبارا، ويقظة وغفلة، وقوة وضعفًا. عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

هذا، ولقد حثت الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة على وجوب محبة الله تعالى ومحبة رسول الله ﷺ أكثر من النفس والولد والوالد والناس أجمعين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤). وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة ثمانية أصناف وهم: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال المكتسبة، والتجارات، والمساكن. وهذه الأصناف تمثل بمجموعها كافة الروابط الاجتماعية والاقتصادية وعليها مدار مصالح الخلق في حياتهم. فلم يذم الله تعالى في الآية حب هؤلاء؛ وإنما جعل من مقتضى الإيمان

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، ح٢٨٥٦.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ح٤٣.

إيثار محبة الله تعالى ورسوله المجتبى ﷺ على حب هذه الأصناف.

ومحبة الله تعالى توجب اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم والائتساء به: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌرَّحِيم﴾ [آل عمران: ٣١]. أي "إن كنتم تريدون طاعة الله وترغبون في العمل بما يقرب إليه طلباً للثواب فيما عنده، فاتبعوني بامتثال ما نزل به الوحي منه إليّ، يرض الله عنكم ويتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة، والاعتقادات الباطلة، ويبوئكم في جوار قدسه، إذ في هذا الاتباع اعتقاد الحق والعمل الصالح، وهما يزيلان من النفس آثار المعاصي والرذائل، ويمحوان منها ظلمة الباطل، وأثر ذلك المغفرة ورضوان الله"(١). وهو صلى الله عليه وسلم خير قدوة لكافة المؤمنين إلى يوم الدين، قدوة في بناء الإنسان، وقدوة أيضاً في إقامة العمران، وقدوة في أمور الدين والدنيا.. وهذه القدوة شرط لكمال الإيمان، ومدخل أساس لبناء الإنسان، يقول الله جل شأنه وتقدست كلماته: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولما "كان الائتساء برسول الله والاقتداء به على الوجه الأكمل، مقاماً كبيراً في الدين؛لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل الإنسان الكامل بين العالمين، نبه كتاب الله على أن هذا المقام لا يبلغه إلا الأصفياء الأتقياء من أقوياء الإيمان واليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾، بعد قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾"(٢).

٣-**العمل الصالح والاستقامة** على منهاج الله تعالى: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ

(١) تفسير المراغي، ٣/١٤٠.

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، ٥/١١٤.

بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ١-٣]. في هذه السورة الوجيزة ذات المعاني العظيمة يتمثل منهاجٌ كامل لبناء الإنسان كما يريده الوحي، وتَبرز معالمُ المنهج القرآني في إصلاحه، إنها تضع العناصرَ الأساس لصناعة الإنسان الصالح في كلمات قصار، وترسم حدوده.. فهي تبدأ بذكر الزمان (العصر) والوقت إذ يجب اغتنامه واستثماره فيما يعود بالنفع والخير والرقي على الإنسان، ثم تربط الآيةُ بين الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الإيمانُ يجب أن يُثمر عملاً صالحاً على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع،

ثم تنتقل بعد ذلك إلى ذكر ما به يستمر المجتمع ويزدهر ويستقر (التواصي بالحق والتواصي بالصبر).. هذه الهدايات السننية إذا التزم بها كلُّ إنسان فستثمر بناء صلاحا في الدين والدنيا.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: "اكتسبوا الفضائل والخيرات الباقية والقيم العملية، فربحوا بزيادة النور الكمالي على النور الاستعدادي الذي هو رأسُ مالهم، فهم في تجارة لن تبور حيث باعوا الفاني الخسيس، واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات.

وجمعوا بين الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، لذلك فهم في ربح لا في خسر؛ لأنهم عملوا للآخرة ولم تُشغلهم أعمالُ الدنيا عنه"[١].

٤-التحلي بالأخلاق الحسنة والقيم النبيلة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَكْمَلُ المؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٢].

إن الأخلاق هي روحُ العبادات والشعائر الدينية، ومعقِدُ الإيمان، وهي الدِّعامة الأولى والحجر الأساس لاستقامة الإنسان وصلاحه.

---

[١] تفسير المراغي، ٢٣٥/٣٠. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الهرري، ٣٠٢/٣٢.

[٢] سنن الترمذي، أبواب الرضاع، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ المَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا، ح١١٦٢. قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

من أجل ذلك كان المقصد الأسمى للشعائر التعبدية مقصداً أخلاقياً؛ وهو إعادة التشكيل الخلقي الكلي للإنسان، وإخراجه من حيوانيته وتيهِيه وتحريره من شهواته وأبتريته وأوهامه وهواه وورطته للارتقاء به إلى إنسان الفطرة والأخلاق الذي يتأسس به المجتمع الصالح ويزدهر ويستمر ويستقر.

ومن ثم فما شرعت العبادات إلا لمقاصد محددة في صناعة الإنسان الصالح والمجتمع الفاضل، فالصلاة مثلا، مقصدها أخلاقي اجتماعي، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

فهي عبادة تصنع الانسجام والتوافق بين الجسم والروح، بين الحركة والفكرة.

والصيام يربي الرقابة الذاتية في الفرد، ويشعره بالعبودية والإنسانية وبالآخرين اجتماعيا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالتقوى أس الأخلاق، كما أن الصيام يهذب الأخلاق، ويربي الإنسانَ على محاسنها، ويدرأ عنه قبائحَها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(١).

وعَنه أيضاً رضى الله عنه يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»(٢).

والزكاة وما تؤديه من تطهير للنفس من الشح واستشعار حق الآخر بالمال، وتطهير المال من حقوق الآخرين، وما تشيعه من التكافل الاجتماعي تؤدي

(١) صحيح البخاري، كتاب الصيام، بَابُ مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فِي الصَّوْمِ، ح١٩٠٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصيام، بَابٌ هَلْ يَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ إِذَا شُتِمَ، ح١٩٠٤.

وظيفتها العظيمة في البناء الخلقي والتربوي للإنسان: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وموسم الحج وما يشيعه من معاني الامتناع عن الرفث والفسق والجدال، مدرسة أخلاقية: يقول عز من قائل: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ليصبح ذلك خلقاً وسجية عند الفرد، يمثل ولادةً جديدة تجديدية: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ لِلهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(١).

وهكذا، فإن العبادات ذات صبغة خلقية اجتماعية واضحة؛ لأنها تهدف إلى تنظيم المجتمع البشري وبنائه على أساس أخلاقي، لا يتسرب إليه الوهن والفساد.ذلك بأن سائرَ أبنية العبادات والشعائر الإسلامية مقصدها أخلاقي، وهي مدارج الكمال الخلقي المنشود، وروافد التطهر الذي يصون بناء الإنسان ويعلي شأنَه.

فالمسلم عليه أن يعبد اللهَ تعالى ركوعًا وسجودًا وصومًا وحجًّا وزكاةً ، إلى جانب سلوك طريق الخير قولًا وسلوكًا ونيةً.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ومن كل ما سبق فإن الإيمان بكل مقوماته السابقة هو الأساس الأهم لصناعة الإنسان، ذلك بأنه يؤدي إلى صلاح الإنسان ليكون مؤهلاً للخلافة في الأرض، وهو قيمةُ تجميعٍ لكل مواهب الفرد وقدراته، للنهوض الاجتماعي، وهو المحرك الأساس للإنسان إلى الإنجاز وعدم الرضا بالعطالة فينطلقُ ليكشف

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ح١٥٢١.

عن سنن الله الكونية والاجتماعية، ويقوم بتسخيرها ويعمل بمقتضاها ليحقق مهمةَ الاستخلاف الإنساني في المجتمع وعمارته. وفي هذا الإيمان يقول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الهداية السننية الثانية: لا صلاح للإنسان بلا تزكية:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

إن كلمة التزكية في اللغة تعني الإصلاحَ والتطهير والتنمية والتقويم والتربية والزيادة في الحسن والنفع.. والتزكية في مجال السلوك الفردي والاجتماعي بمعنى التطهير والترقية والتنميةِ للمشاعر النفسية والسلوك النفسي والعلاقات الاجتماعية، وإحداثِ تغيرٍ في السلوك غيرِ المستقيم من أجل جعله سلوكًا مستقيمًا.

فالتزكية إذن هي: تطهير النفس من الأدران والأوصاف الذميمة وتنميتها بزيادتها بالأوصاف الحميدة وتحليتها بمكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، وهي إيقاظ للفطرة وتقويمها، وهي سماع وتشبه وتمثل وتشرب؛ سماع لنداء الحق واستجابة له، وتشبه واقتداء، وتشرب قلبي روحي فتمثل فكري سلوكي، تزكية تربط مصير الفرد المؤمن المرجو عند الله بمصير الأمة في الأرض.

والقرآن الكريم يقدم التزكية على التعليم، كما يتضح من سياقاته ويجعلها مقدمةً له حيث تسهل العمليةَ التعليمية وتدعمُها قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] . وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] ."﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ أي قد ربح وفاز من زكى نفسه ونمّاها حتى بلغت غاية ما هي مستعدة له من الكمال العقلي والعملي، حتى تثمر بذلك الثمر

الطيب لها ولمن حولها. ﴿وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ أي: وخسر نفسه وأوقعها في التهلكة من نقصها حقها بفعل المعاصي ومجانبة البر والقربات، فإن من سلك سبيل الشر، وطاوع داعي الشهوة فقد فعل ما تفعل البهائم، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التي اختص بها الإنسان، واندرج في عداد الحيوان.
ولا شك أنه لا خيبة أعظم، ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله"[1].

وتتخذ سنة التزكيةِ في القرآن الكريم موقعاً مهما ضمن منظومة السنن الهدائية القرآنية، فالتزكية موضوعُها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح الإنساني، من أجل إصلاح الفرد والمجتمع والأمة.

وتشمل التزكيةُ كيانَ الإنسان كلّه جسداً وعقلاً وروحاً وسلوكًا ووجدانًا، وكما تشمل العلاقات بين الإنسان وغيره، وبينه وبين ربه. فهي تحرر روحَ الإنسان من العبودية لغير الله، وتحرر الجسم من الوقوع في أسر اللذات والشهوات، وتحرر العقلَ من الأوهام والخرافات وتقيم العلاقات الاجتماعية على الأخوة، والعدل، والحب، والتعاون. بناءً للمجتمع الصالح المكون من أفراد صالحين.

وتأسيساً عليه، فلا نهوض للمجتمعات ولا شاهِدية للأمة على الأمم الأخرى إن لم تُول العناية اللازمة للتزكية؛ ليُبْنى الإنسان تأمينًا لسعادته المعَادية، ويُقام العمرانُ تأمينًا لحاجاته المعاشية..

يقول الدكتور ملكاوي: "إذا كان التوحيد مقصد قرآنياً، يتصل في الأساس بعقيدة الإيمان بوحدانية الله سبحانه، وتتجلى آثاره في ترشيد الصلة بالله الواحد عن طريق العبادات الشعائرية والتعاملية، فإن التزكية مقصد قرآني يتصل في الأساس بالإنسان الذي استخلفه الله في الأرض؛ الإنسان في ضميره وعلاقاته وأنماط سلوكه. ومن ثم فإن موضوع التزكية هو إصلاح واقع الإنسان

[1] تفسير المراغي، ١٦٩/٣٠.

فرداً وجماعة وأمة ونوعاً بشرياً، وإصلاح الإنسان مادة وروحاً. والمقصد المباشر هو ترقية هذا الإنسان في مراتب التزكية والتنقية والتطهير في المشاعر والخلجات والخواطر النفسية، على مستوى الفرد الإنساني، وفي التطهير والبركة والنماء في ماله وممتلكاته، وفي الترقية والإحسان في علاقاته الأسرية والاجتماعية، ليكون الإنسان أقدر على تحقيق الإصلاح في البناء الاجتماعي والعمران البشري"[1].

ويمكن القول من خلال ما تقدم أن التزكية مدخل جوهري لإصلاح الإنسان وصناعة العمران، لأن التزكية ليست إعداد للحياة، بل هي الحياة نفسها؛ لأنها لا تقف عند الجانب الروحي فقط، بل تمتد إلى بناء فكري وثقافي متكامل.. حيث تسهم في التحويل الثقافي للإنسان وتعيد تشكيله وفق نسق جديد من هدايات الوحي..

الهداية السننية الثالثة: العلم حصنٌ لبناء الإنسان:

يقول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١]

إن العلم هو أمضى سلاح بعد الإيمان، وهو السراج المضيء للطريق، ودليل العمل الصالح، والعلم ما قربنا إلى الله تعالى وبصرنا بمصيرنا إليه، ورسخ أقدامنا في الشريعة الغراء، ودلنا على واجبنا ورسالتنا في هذه الحياة، وهو نور في قلب من أيده الله تعالى بمدده وفتح له بصيرته، ثم تأتي العلوم الكونية تباعا لأنها تدعونا إلى التدبر في ملكوت الله.

وليس العلم ما انتكست فيه الإرادة، وقَلَّ الفهم، وتكدست فيه النقول، إنما العلم النافع الذي تربى عليه الصحابة رضي الله عنهم في المدرسة النبوية، هو ذلك العلم الذي يصنع إنساناً صالحاً ويبني أمة قائمة بالقسط، ويعيد الوعي في عقل المؤمن، ويعيد كل معرفة كونية إلى منبعها وأصلها بعلم الحق...وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تحث على العلم وترفع من رجاته،

---

[1] القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، فتحي حسن ملكاوي، ص٢٤٠.

بل إن آيات الوحي الأولى من سورة العلق وهي أول من نزل على النبي صلى الله عليه وسلم تضع الأسس الأولى والقواعد الأساس لبناء الإنسان بالعلم، قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ *﴾ [العلق: ١-٥]. وهي إشارة ربانية إلى ما ينبغي السير عليه في سبيل إنقاذ الإنسان وإخراجه من براثين الجهل والأمة، وإعادة بنائه على نور العلم.

لقد أمرَ الله تعالى في الآيات السابقة بالقراءة، وهي مفتاح العلم، ونوَّه بالقلم وهو أداة توثيق العلم وتناقله بين الأجيال والأمم. وهو سبحانه الأكرم الذي علم عبادَه ما لم يعلموا، وأخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضله لما فيه من المنافعِ العظيمة للإنسان.

ومن ثم فمن مطلع السورة يتبين أن "أول الطريق: القراءة باسم ربنا، فبلا قراءة لا علم، وبغير اسم ربنا لا قدرة ولا انتفاع، أي الإبصار بعين الوحي وميزانه:

وذلك مما يستلزم:

– أن التفوق في العلم بلغة اليوم هو الخيار الاستراتيجي والطريق المعبد للإمامة الحضارية.

– أن الإصلاح يبدأ من الأفكار قبل الأعمال، ومن الباطن قبل الظاهر، ومن الأصل قبل الفرع، ومن الفرد قبل الجماعة"[1].

وثاني سورة قرآنية في ترتيب النزول (سورة القلم) نوهت بالقلم أداة تسجيل العلم ونقله عبر الأجيال. قال سبحانه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[القلم:١]؛ فأقسم الله تبارك وتعالى فيها بالقلم، وفي ذلك تشريف أي تشريف، وقد جرت سنته تعالى في القرآن الكريم: أنه يقسم بالشيء تنبيها على عظيم منفعته، ولفتاً لأنظار الناس إليه، وأي شيء أعظم منفعة وأكثر إفادة من القلم مذيع العلم

[1] الهدى المنهاجي في القرآن الكريم، الشاهد البوشيخي، ص ٩.

ومثبته، وناقله من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أخرى.؛لأجل ذلك كان الإسلام أول دين أعلن الحرب على الجهل والأمية، ودعا إلى التسلح بالعلم والمعرفة، ورفع منزلة العلم وأهله، وجعل السعي في طلبه فريضة والتفرغ له عبادة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه قربة، وهو مفتاح الإيمان، ودليل العمل، ونور الطريق، ومسلك عظيم من مسالك الجنة. وكل من قرأ الوحي القرآني أيقن أنه خطاب إلهي: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وآيات: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهدى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وأن المؤمنين هم «أولو النهى» و«العلم»، والكفار به قوم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ [الإسراء: ٧٢].

لقد بين لنا الله تعالى في كثير من آياته قدر هذا العلم ومكانته، ومدى أهميته في حياة المسلم، فالعلم له أهمية كبيرة في بناء الإنسان السوي، وله أهمية أيضاً في رقي المجتمعات ونهضة الأمة وانبعاثها من جديد.. ؛ ذلك بأن الأمم لاتقوم على الجهل، فمن ملك ناصية العلم ملك ناصية العالم، ومن ملك العلم ملك القوة، ومن ملك القوةَ فرض إرادته على العالم، ولابد أن يأخذ العلمُ سلطانَه وفق الهدايات السننية.

فالعلم رفعةٌ للإنسان، وحصن حصين له، وقد جُعِل العلم وسيلةَ التوحيد والتعبد، لأن "به يُطاع الله عز وجل وبه يُعبد، وبه يُوحَّد وبه يُمجَّد"(١)، كما جُعِل العلم أساس العمل الصالح، "إذ لا تتفق عبادة إلا بعد معرفة المعبود"(٢)، لكونها سابقة عليها ومقدَّمة، ولا تقصُر العبادة على العمل، بل تشمل العلم تأسيساً للتلازم بينهما، ذلك بأن "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن يتلازما؛ لأن العلم كالأس والعمل كالبناء، وكما لا يغني أسٌّ ما لم

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ١١/١.
(٢) قانون التأويل، ابن العربي، ص٥٥٢.

يكن بناء، ولا يثبت بناءٌ ما لم يكن أسٌّ، كذلك لا يُغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم"[١].

"العلمُ كالأسِّ والعملُ كالبناءِ" وهذا ما يؤكده الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله– في قوله: "والعمل لقاح العلم، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئاً، والحِلم لقاح العلم، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع"[٢].

الهداية السننية الرابعة: المسؤولية صانعة الإنسان:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١]. "توكيد قوي وحاسم للمبدأ القرآني الذي قررته بعض آيات هذه السورة والسور التي قبلها. وهو قابلية الإنسان للكسب والاختيار والسعي ومسؤوليته عن كسبه واختياره، واستحقاقه الجزاء على ذلك وفاقا لما يكون فيه من خير وشر ونفع وضرّ وهدى وضلال.

وفي هذا ما فيه من تقوية الوازع الذاتي فيما يباشره الإنسان من عمل وفي عواقبه.. وفي الآيات زيادة مهمة ذات خطورة تلقينية عظمى في تقوية هذا الوازع، وهي تقرير أثر سعي الإنسان في عاقبته وجزائه على طريق الحصر، بحيث يوفر في نفسه عدم الجدوى في الاعتماد على شيء آخر غير العمل الصالح على سعة شموله لنيل ما وعد الله عباده الصالحين من سعادة الدنيا والآخرة"[٣].

وليوضح كتاب الله ثقل المسؤولية الشخصية، الملقاة على عاتق كل فرد، صوَّرَ لنا الشخص وهو يمشي مثقلا بأوزاره، يلتمس من رفاقه في القافلة إعانته

---

[١] تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الأصفهاني، ص٨٦.

[٢] الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص ٢٨٩-٢٩٠.

[٣] التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ١١٣/٢.

والتخفيف عنه، فلا يستجيب له أحد، ولو كان من أقرب الأقربين، لأن كل واحد منهم ينوء بحمله الخاص، ولسان حاله يقول: (نفسي نفسي)، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى (٣٧: ٨٠) ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(١).

وهذه الهداية من أعظم هدايات إصلاح الإنسان، إذ تجعل الإنسان يتحمل مسؤولية أعماله وتصرفاته أمام الله تعالى وأمام نفسه ومجتمعه، وأن أي عمل سيجازى عليه،.. فيدرك أن الأمور تمضي وفق سنن إلهية ثابتة ومطردة لا تتحول ولا تتبدل.. إنها تربية على تحمل المسؤولية وغرسها في النفوس، وعلى مدى الالتزام بهذه المسؤولية أو عدم الالتزام بها يكون الجزاء خيراً أو شراً.

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الجميع مسؤول، وأن الجميع سيقف أمام الله تعالى غداً يوم القيامة، ويُسألون، ويجازون عن أعمالهم، فيثابون إن أحسنوا عملا، ويعاقبون إن أساءوا، قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ..»(٢).

إن صلاح الإنسان مرتهن بتحمله للمسؤولية على أتم وجه؛ فيسعى في صلاح نفسه، وصلاح من يعول من أسرته، وصلاح أمته.. تلك المسؤولية التي يترتب عليها المحاسبة والجزاء وفق سنة الله الله تعالى الحاكمة. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر: ٣٨].

الهداية السننية الخامسة: الرابحون هم المستثمرون للوقت:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٢]. أقسم الله تعالى في هذه السورة "بالعصر"، والمقسَم عليه هنا هو إثبات أن الإنسان يظل خاسراً

(١) التيسير في أحاديث التفسير، الناصري، ٢٢٣/٥.
(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، بَابُ ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، ح٥١٨٨.

لنفسه ولحياته، ولا يعتبر من الفائزين المفلحين الرابحين، إلا إذا استثمر الوقت والزمان في الإيمان بالله تعالى، والعمل الصالح والتمسك بالحق والاعتصام بالصبر، والتواصي بذلك.. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»(١). وعنه أيضاً قَالَ: قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»(٢).

إن الوقت ثروة لا تقدر بثمن، إذ لا يتحقق صلاح الإنسان إلا بالاستثمار الأمثل والصحيح للوقت، ووعيه بقيمته، وتوظيفه فيما يعود عليه بالخير والنفع في الدنيا والآخرة، ذلك بأن بناء الإنسان الصالح مرتبط بإدراك قيمة الوقت وامتلاكه بما يُنجز فيه من أعمال نافعة وفضائل نبيلة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

هذه إشارة إلى أهمية الوقت في حياة الإنسان، فتعاقب الليل والنهار هو من أجل العمل الصالح والحركة النافعة في الدنيا لابتغاء فضل الله تعالى، وبذلك يستطيع الإنسان أن يخطط لمشاريعه الريادية النهضوية المستقبلية.. ذلك بأن النهوض بواقع الإنسان لا يقوم على أكتاف الكسالى الفاترين، وإنما ينهض بهمم الذين يسابقون الزمن، ويشمرون عن سواعد الجد.

ذلك بأن الفراغ جرثومةُ فساد تنتشر وتستفحل في الإنسان فتحطم الجسد وتقتل الروح، إنه لص خبيث وقاطع طريق، وسارق خَسيس أفسد أناساً ودمر

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ٣٤١/٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرَّقَاقِ وَأَلَّا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، ح٦٤١٢.

قلوباً وسبب ضياعاً. فالحياة قصيرة جداً، لكنها تطول بالإنجازات التي تعود بالنفع على الإنسان فرداً ومجتمعاً.

وبناء على ما تقدم يكون الاستثمار الأمثل للوقت واغتنامه هداية سننية خامسة لصناعة الإنسان الصالح، ذلك بأن أكبر أمنية للإنسان عند موته هي أن يعود إلى الحياة ليستثمر الوقت الذي فرط فيه في العمل الصالح، لكن هيهات ولات مناص: قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال عزَّ وجلَّ في سورة المنافقون: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

الخاتمة

تلك إذن هي خمس هدايات سننية، بمثابة مرتكزات كبرى لصناعة الإنسان الصالح:

١-**الإيمان أس الإصلاح** وهو الذي يدفع الإنسان إلى الإنجاز وعدم الرضا بالعطالة والقعود، والإيمان عقيدة صحيحة وعمل صالح، وخلق حسن، وعبادة وقربة، وإخلاص دائم لله تعالى، وشكر له، ومحبة صادقة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، واستقامة على الطريق الصحيح.

٢-**التزكية:** هي هدف من أهداف الوجود الإنساني، ومقصد من مقاصد الحياة، وهي المؤهل الأساس والشامل الذي يجعل الإنسان قادراً على القيام بمهام الاستخلاف وأداء الأمانة والوفاء بعهده تعالى، وإعمار الأرض ووراثتها في الدنيا، وهي التي تهيء الإنسان لوراثة الفردوس الأعلى في الآخرة، ومن ثم فهي من أهم الهدايات السننية لصناعة الإنسان، فبها صُنع الرعيل الأول على عين الوحي فكانوا نماذج خالدة للإنسان الصالح الذي نزل الوحي لصناعته.

٣-**علم نافع:** أي تعليم الإنسان وتثقيفه بما ينفعه في دينه ودنياه، وما يحقق به خلافته وينهض بمجتمعه، وهذا مقوم من أهم مقومات النهوض بالإنسان من جديد، وأصل عظيم من أصول بناء الإنسان وإعداده ليكون مؤهلا لوظيفة الخلافة في الأرض.

٤-**تحمل المسؤولية:** فبها يدرك الإنسان أنه مسؤول عن كسبه من خير وشر ومحاسب عليه، فيحسن أفعاله وتصرفاته، والمسؤولية هي عبارة عن خليط متجانس من المهارات والملكات أهمها: الثقة بالنفس، والقدرة على نقد

الذات، والصبر والتحمل، والجرأة والإقدام، والمواجهة، والقدرة على اتخاذ القرار، والثقة بالآخرين وغير ذلك..

٥-**اغتنام الوقت**: فالوقت هو الحياة، وهو من الهدايات الأساسية لبناء الإنسان، ذلك بأن عامل الوقت والاستخدام الأمثل له عامل مهم من عوامل صناعة الإنسان الصالح.. وسيحاسب الإنسان إن لم يحسب للوقت حسابه، وأنفق عمره ضياعا، الأيام والساعات والدقائق بل حتى الثواني.

وتأسيساً على ما تقدم فإن صناعة الإنسان لا تكتمل إلا بتلكم الهدايات السننية، ولا يستمر بنيانه ويستقيم ويتماسك إلا بها؛ لأنها المحصنة لبنيانه، الموجهة لمسيرته، الضابطة لسيره وحركته ونشاطه، والمانعة له من الانحراف والسقوط والانهيار...

وفي الختام: أوصي الباحثين بالعناية بالهدايات القرآنية السننية، فهي منطلق لبناء الإنسان وإصلاح المجتمعات وإقامة العمران.

والحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على حبيبنا محمد خير الأنام وآله وصحبه الكرام.

ثبت المصادر والمراجع

المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم.

١-أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، جوهري طنطاوي، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م.

٢-إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٣-الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده، مجلة المنار، المجلد الخامس (١٦ جمادى الآخرة - ١٣٢٠هـ).

٤-التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية — القاهرة، ط: ١٣٨٣هـ.

٥-تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)|، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١: ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

٦-تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).

٧-تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي الهرري، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨-تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط: ١٩٨٣م.

٩-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٠-الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار عطاءات العلم (الرياض)-دار ابن حزم (بيروت)، ط٤: ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، (الأولى لدار ابن حزم).

١١-التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٢- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط/١٩٩٨م.

١٣- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١: ١٤٢٢هـ.

١٤- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥- القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١: ١٤٤١هـ/٢٠٢١م.

١٦- قَانون التَّأويْل، القاضي ابن العربي، دراسة وتحقيق: محمّد السّليماني، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، جَدّة، مؤسَسَة عُلوم القرآن، بيروت، ط١: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٧- الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار "سوزلر"، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٨- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، مع تضمينات: الذهبي في التلخيص والميزان والعراقي في أماليه والمناوي في فيض القدير وغيرهم، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٩- الهدى المنهاجي في القرآن الكريم. الشاهد البوشيخي، دار السلام –القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٢٠م.